



الملتئة نعمة، أم المنعم عليها؟

التعليم اللاهوتي الصحيح عن العذراء القديسة مريم

دكتور

جورج حبيب بباوي

أغسطس ٢٠١٣

"الممتلئة نعمة، أم المُنعم عليها"؟ التعليم اللاهوتي الصحيح عن العذراء القديسة مريم

وصلنا على موقع www.coptology.com سؤال كتبه د. سامح فاروق حنين، يقول فيه: أستاذنا العزيز د. جورج .. سلام وتحية من رب المجد. قمت بعمل بحث عن الترجمة الصحيحة للآية "السلام لك أيتها الممتلئة نعمة" من خلال النص اليوناني الأصلي ومقارنته بنصوص أخرى وترجمات أخرى لنفس اسم المفعول (κεχαριτωμενη) ووجدت أن الترجمة الأدق هي "المنعم عليها"، وعندما قرأت بحثكم الرائع "الخلاص كما شرحه القديس كيرلس" وجدت في أكثر من موضع أن القديس كيرلس يؤكد على فكرة "فقدان النعمة" وأن "آدم ومعه كل الجنس البشري الذي كان فيه (بما فيهم السيدة العذراء) حُكم عليه بالموت والفساد"، أي "غياب الروح القدس والانفصال من شركة الثالوث"، و"فقدان النعمة الآتية من الله" في حين أنكم تستشهدون في كتاباتكم بترجمة "الممتلئة نعمة"! العذراء مريم في الأجبية ص ٦ وفي "افرامية عيد العذراء".

فكيف تكون السيدة العذراء مريم "ممتلئة نعمة" بعد كل هذا؟؟
ومن أين امتلأت بهذه النعمة، وهي ابنة آدم وسرى عليها ما سرى على آدم من "فقدان النعمة"؟؟

فأرجو من محبتكم التوضيح .. وشكراً.

الرد على السؤال

الأخ الفاضل د. سامح فاروق حنين، أعاد السؤال الذي طرِح منذ زمن طويل حول صحة الترجمة. وما ذكره القارئ الفاضل من أن النص اليوناني ومقارنته بنصوص أخرى يبدو أن "المنعم عليها" هو الأقرب والأصح.

الجانب اللغوي:

"السلام لك" هي صيغة *Singular Imperative* وحرفياً تعني "افرحي" *rejoice* فهي صيغة سلام وردت في (مت ٢٦ : ٤٩) بكل أسف في تحية يهوذا الخائن للرب يسوع في البستان، ولكنها صارت عطية القيامة وليست مجرد تحية في بشارة السلام من الرب يسوع القائم من الأموات (متى ٢٨ : ٢٩).

علماء اليونانية المعاصرين لنا^(١) يقولون إن الأصح هي "افرحي"، ولكن إذا عُدنا إلى الممارسات اليومية في زمان الرب بالجسد، فإن كلمة "سلام" هي الكلمة العادية التي تعبر عن الصداقة والألفة ومعرفة صاحب التحية بالشخص الذي يقابله (راجع لوقا ١٠ : ٥ - لوقا ٢٤ : ٣٦ - يوحنا ٢٠ : ١٩، ٢١)، وهي هنا سلام القيامة لا سيما في يوحنا ٢٠ : ٢٦ سلام الحياة الجديدة. ولم تستخدم الترجمة السبعينية LXX الكلمة اليونانية إلا بمعنى السلام حسب (صفنيا ٣ : ١٤. يوثيل ٢ : ٢١ زكريا ٩ : ٩ - مرثي ٤ : ٢١).

ما هو المقصود بـ *κεχαριτωμενη*؟

لعل أفدح أخطاء العصر الوسيط شرقاً وغرباً معاً هو فقدان الأساس اللاهوتي الذي يشرح لنا مفردات الكتاب المقدس، بل الاستغراق في التحليل اللغوي، كأن النص المكتوب هو استعلان الله في الابن، وليس يسوع الشخص والأفنوم، الذي من خلال شخصه وحده، ومن العلاقة الجديدة التي جاء بها، يتم شرح مفردات الكتاب المقدس؛ لأن هذه العلاقة الجديدة لم تشيّد ولم تؤسّس على كلمات بالمرّة، بل فقط عبّرت عنها الكلمات.

(١) H. Gressman – H. Sahlin – S. Lyonnet.

وهناك خطأ وقع فيه باحثون في زماننا يتمثل في مقارنة -غير دقيقة بالمرّة- بين القمص متى المسكين وتوما الأكويني، والفرق بين الاثنين هو فرق في المنهج وفي الغايات *Goals* التي يسعى إليها كل منهما، ففي الوقت الذي ساد فيه - لدى القمص متى المسكين - المنهج الصوفي *Mystical* الذي طوّع - من خلاله - وأَسَرَ *Captivated* اللغة، لا سيما اللغة العربية التي قدّم فيها عدة مصطلحات عربية جديدة لم تكن معروفة، نجد أن الفيلسوف الشامخ توما الأكويني كان تلميذاً لأرسطو، وريبياً لفلسفة العصر الوسيط.

هكذا - بذات الطريقة، أي اختلاف المنهج والغايات - تجيء محاولة إبراز دور خاص ومقام خاص للقديسة مريم دون الانتباه إلى الأساس اللاهوتي الذي يجب أن يقوم عليه أي تمييز *Discernment* بين الرأس الرب يسوع، والأعضاء، أي أعضاء جسده (١ كو ١٢ : ٢٧)، أي الكنيسة.

القديسة مريم خضعت للموت مثل سائر البشر، وماتت فعلاً لأنها من آدم الذي فيه "يموت جميع الجنس البشري" (١ كو ١٥ : ٢٢)، ولا يمكن بالمرّة أن نعفي أي إنسان وُلِدَ من امرأةٍ من وراثته الموت الذي دخل مع الخطية، والذي ورثه الجنس البشري (رو ٥ : ١٢ وبعده). وهنا يصبح تقديم شهادة العظيم أثناسيوس مُعلّم الأرثوذكسية ضرورة حتى لا يظن أحد أنني أحاول الهجوم على والدة الإله، فما أكثر الذين طالت ألسنتهم وطالت أقلامهم أكثر من ألسنتهم في زماننا.

يقول أثناسيوس العظيم: "القديسة مريم التي أخذ منها جسده كانت قابلة للموت" (الرد على الأريوسيين ٣ : ٥٦). وتعبير "قابلة للموت" هو نفس التعبير الذي استخدمه المعلم العظيم في شرح تجسد الكلمة (ورد في عدة مرات على سبيل المثال "اتخذ جسداً مماثلاً لطبيعة اجسادنا ٨ : ٤ - من غير الممكن أن يموت الكلمة لأنه غير مائت .. لهذا اتخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت .. لكي يبقى بسبب اتحاده بالكلمة في عدم فساد (٩ : ١).

وأساس التمييز هنا هو اشتراك الرب مع أمه البتول في طبيعة واحدة قابلة للموت، فلا مجال للتردد بالمرّة، ولكن ناسوت الرب حُفِظَ من الفساد بسبب اتحاده

بالكلمة حسب بشارة رسول الرب يسوع القديس بطرس في يوم العنصرة (أع ٢: ٢٧).
الاتحاد الأقنومي خاص بالرب يسوع، ومجد تجسد الابن الوحيد هو العطية التي
وُهبَت للإنسانية والتي مصدرها يسوع وحده؛ لأننا سُنجح في المسيح (١ كو ١٥: ٢٢)،
وهذا ما تؤكدُه تسبحة القديسة مريم: "تعظم نفسي الرب وتبتهج روعي بالله مخلصي".

النعمة:

سقطت النعمة تحت معاول العصر الوسيط، فصارت مجرد *Concept* أي
محتوى وفكرة عقلية، ولذلك تجد - حتى في بعض المراجع الحديثة - نفس تحديد العصر
الوسيط بأن النعمة هي *Favor* ولذلك؛ كان أفضع ما حدث في اللاهوت الغربي
بالذات هو فصل الكلمات عن العلاقات الإلهية - الإنسانية، وهي قضية الجيل الآتي
الذي سوف يكتشف الفراغ الهائل الذي تخلقه الكلمات عندما تُقدّم وحدها بدون
الأساس اللاهوتي، وهو الشركة *Communion* بل وبدون الاشتراك الحقيقي والكياني في
حياة المتجسد ابن الله أي *Participation*

وعندما يكتب رسول الرب يسوع القديس بولس: "لأنكم تعرفون نعمة ربنا
يسوع المسيح أنه من أجلكم افتقر وهو الغني لكي تستغنوا أنتم بفقره" (٢ كو ٨: ٩)،
أو لقد "أخلى ذاته" لكي ننال مجده، فيجب أن يكون من الواضح أن مجد الابن الوحيد
لم يكن مقالاً أو عبارات نطق بها الرب يسوع في يوحنا (ص ١٧)، بل هو نوال مجده
الذي أعلنه في جسده الخاص به عندما تجلّى على جبل طابور، ولمع بنور أكثر من بهاء
الشمس، فصار "جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١) هو ذات الجسد الذي سوف يضيء
بنفس نور المجد الإلهي في يوم القيامة.

ولكن عندما تصبح "النعمة" نوعاً من العطف أو الإحسان، أو سلوكاً أخلاقياً
مثل منح الألقاب والجوائز والنياشين، فإن المسيحية تكون قد دخلت في رواق أرسطو
وأفلاطون، وصارت مدرسة أخلاقية، وهو خطرٌ تتعرض له البشارة دائماً عبر كل
العصور.

الروح القدس يحلُّ عليكِ وقوة العلي تُظَلِّلكِ:

الأقنوم الثالث روح الرب يحل، وحسب الأصل اليوناني الذي يفضُّله الأخ الدكتور سامح، فهو ليس مجرد حلول، بل هو *eperchesthai* ينزل *come up on* لأن هذا الفعل بالذات ورد في (لوقا ١١ : ٢٢ ، ٢١ : ٦) وفي يوم العنصرة (أع ١ : ٨ ، ٨ : ٢٤ ، ١٣ : ٤)، و"قوة العلي" هو تعبير *parallel* لاسم الأقنوم الثالث معروف في اللغات السامية العبرانية والآرامية بشكل خاص.

وبالرغم من أن النص يقول: "قوة العلي - أي قوة الروح القدس - تظلللك"، فقد ضاع من الوعي القوة الكامنة في الحركة الإلهية - حركة نزول الروح القدس، والتعبير عن هذا النزول بأنه "يظلل" القديسة مريم. الفعل اليوناني *episkiazein* الذي استُخدم للروح القدس هو ذات الفعل المستخدم للسحابة المنيرة التي ظلَّت الرب مع موسى وإيليا على جبل التجلي (لو ٩ : ٣٤)، وهو أيضاً ذات الفعل الذي ورد في السبعينية عن سحابة المجد الإلهي التي ظلَّت خيمة الاجتماع: "غطت السحابة خيمة الاجتماع وملاً بهاء الرب المسكن". والسحابة أو الشاكيناه هي ذات القوة التي تظلل خائفي الرب في (مزمو ٩١ : ٤).

بعد كل ما تقدم، هل يصح أن يكون الخلاف خلافاً على ترجمة، أم العبرة هي بحقيقة الامتلاء من الروح القدس وحلول روح الرب على القديسة مريم؟

ماذا نقول عن تلك التي صارت "خيمة الاجتماع" في العهد الجديد؟

لقد لاحظ العلامة أوريجينوس - وهو من أعظم علماء الكتاب المقدس - في العظة السادسة على إنجيل لوقا أن كلمات الملاك للقديسة مريم لا يوجد لها مثيل في الكتاب المقدس كله؛ إذ لم تسمع امرأة ولا رجل هذه الكلمات في العهدين:

"خاطب الملاك مريم بخطابٍ جديد لم أجده في أي موضع في

الأسفار، وسوف أشرح كلمات الخطاب في إيجاز: "السلام لك يا ممتلئة

نعمة" والكلمة اليونانية *Κεχαριτωμενη* لم أجدها - على قدر ما

أتذكّر - في الأسفار، وتعبير مثل هذا "ممتلئة نعمة" لم يوجّه حتى لرجل. هذه

التحية حُفِظَتْ أو حُصِّصَتْ لمريم وحدها" (عظة ٦ : ٧ سلسلة آباء الكنيسة

مجلد ٩٤ ص ٢٦).

الامتلاء من النعمة، أي من حلول الروح القدس لا علاقة له بحالة الإنسان مهما كان؛ لأن هذا الامتلاء من النعمة جاء به الاتحاد الأقنومي؛ لأن شهادة الإنجيلي يوحنا أن وحيد الآب "مملوءة نعمة"، وإنما نحن "من ملئه نحن جميعاً أخذنا" (يوحنا ١: ١٤ - ١٦). هذا الملاء هو إلهية الرب، فإنه فيه "يحل كل ملء اللاهوت جسدياً"، هذا عن تجسد ابن الله. وأكمل رسول المسيح القديس بولس بقية التعليم: "وأنتم مملوون فيه" (كو ٢: ٩ - ١٠).

فإذا كانت القديسة مريم - كما ذكرت يا أخي الكريم - هي ابنة آدم، وسرى عليها ما سرى على آدم من فقدان النعمة.. فأنت على صواب، إذا كنت تفكر في مريم العذراء قبل البشارة وقبل حلول الروح القدس عليها.

الامتلاء من النعمة هو حلول الروح القدس، وحلول أقنوم الله الكلمة في أحشاء البتول، هذا لا يمكن إنكاره، وتبعاً لذلك لا يجب أن يصبح الخلاف على الترجمة هو محور الإيمان؛ لأن محور الإيمان هو تجسد ابن الله من العذراء.

وحقاً لقد "أنعمَ عليها"؛ لأن النعمة لا يرثها أي إنسان، ولكن ذلك الإنعام لم يكن عطفياً ولا إحساناً *favor* بل تنازل الله نفسه لكي يُولد منها، فهي تحمل في أحشائها ذاك الذي هو "ملء اللاهوت"، أو "ملء النعمة"، أو "الملاء"، عندئذٍ يصبح من الصواب - إذا تذكرنا تجسد الرب - أن نقول: "الممتلئة نعمة"؛ لأنها امتلأت من حضور الله الكلمة، من حضور وحلول قوة العلي عليها. ويبقى علينا أن نحاول أن نُخضع الكلمات للإيمان لا الإيمان للترجمات والأبحاث اللغوية؛ لأن المسيح الرب ليس كتاباً أو فصلاً من فصول العهد القديم، بل هو الله خالق السموات والأرض^(١).

وتبقى مسألة ذات حساسية خاصة عند الذين اسلموا اللاهوت المسيحي للشريعة، وفقدوا الحس والوعي بالنعمة - أننا لا أقصدك يا أخي الكريم لأنني لا أعرفك - ولكن هؤلاء حذفوا تجسد رب المجد من واقع حياتنا، وجعلوا تجسد الرب حدثاً فريداً ليس

(١) راجع مقالنا بعنوان: غفران الخطايا حسب تسليم صلواتنا الكنسية القبطية الأرثوذكسية، ص ٤ تحت عنوان: الكتاب المقدس ليس مصدراً للعقيدة. منشور على موقع www.coptology.com

له أي آثار أو فاعلية على حياتنا، بما فيها نوال عطية التبني (غلا ٤ : ٤ - ٦)، وهي شركتنا في بنوة رب المجد، بل ذاب في مستنقع العصر الوسيط حقيقة أننا "وارثون مع المسيح" (رو ٨ : ١٧) لكل ما استُعِلن في يسوع المسيح من مجد وبنوة وملكوت وحياة أبدية، وما سوف يُستعلَن هو أكبر مما سمعنا وعرفنا؛ لأنه لم يظهر بعد ماذا سنكون (١ يوحنا ٣ : ١ - ٣).

لقد وُلِدتَ من البتول بالروح
 لكي نولد نحن أيضاً من الروح
 أنت من العذراء
 ونحن من الماء والروح
 لم نولد من العذراء مثلك
 ميلاداً جديداً
 بل أنت وحدك وُلِدتَ من العذراء
 لكي تحوّل ولادتنا فيك
 نحن نولد من نساء هُنَّ أمهاتنا
 وهذا ميلاد الموت والفساد
 ولكنك جئت بميلادٍ للأمهات والآباء
 ولكل أجيال البشر
 لكي ننال من ملء نعمة الخلق الجديدة
 ذلك الكيان الذي لا يموت،
 بل يقوم لحياة الأبد فيك وبك
 سلامٌ يا ممتلئة نعمة؛ لأن بشارتكِ
 هي بشارَةُ الامتلاء من النعمة.